﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـثـالٌ واقـعـيٌّ يـفـضحُ نـفـوسَ الكافرين الماكرةَ المـسـارِعـةَ إلى الـكـفـرِ في مقامِ الشُّكرِ

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

الأوّل: لمّا قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كان هذا كلامًا كلّيًّا لا ينكشفُ معناه تمامَ الانكشاف إلّا بذكر مثالٍ كاملٍ، فذكر الله تعالى لنقْلِ الإنسان منَ الضّرّ الشّديدِ إلى الرّحمة مثالًا، ولمكْرِ الإنسان مثالًا، حتى تكون هذه الآيةُ كالمفسّرةِ للآية التي قبلَها، وذلك لأنّ المعنى الكلّيَّ لا يصلُ إلى أفهام السّامعين إلّا بذكر مثالٍ جليٍّ واضحٍ يكشفُ عن حقيقة ذلك المعنى الكلّيّ[1].

الثّاني: لمّا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أخذ سبحانَه يبيِّنُ ما يتّضح به أسرعيّةُ مكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانَه لعبادِه منَ الضّرّ إلى النِّعمةِ، ومن سُرعةِ تَقلُّبِهم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ السّين والياء والرّاء أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ وجَريانٍ، يقال سار يسير سيرًا: إذا امتدّ به السّيرُ في جهةٍ توجّهَ لها، وذلك يكون ليلًا ونهارًا، والسَّير: الذّهابُ، والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ[3]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سير).

والسّيرُ: المُضيُّ في الأرض، ثمَّ استُعملَ في هيئة الحياةِ (الأسفارِ والأعمالِ والمعيشةِ إلخ)، والتّسييرُ ضربان: تسخيرٌ، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، واختيارٌ، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، وسيّر الشّيءَ: حرّكه وجعلَه يسيرُ، وسيّر المحرّكُ القاربَ: دفعَه بقوّة، ومنه قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1].

وَ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾: يجعلُكم تسيرون بتسخيره تعالى، وإعطائكم ما تسيرون عليه منَ الدّابّة وغيرِها في البَرّ، ومنَ الفُلك والسّفنِ في البحر[2].

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: الفاء واللّام والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلّ على استدارةٍ في شيءٍ[3]، والفُلْك: السّفينةُ، يُذكَّر ويؤنَّث، ويُستعمَل ذلك للواحد والجمع، ويُجمعُ على الفُلوك أيضًا، ولعلّها سميّت فُلكًا؛ لأنّها تُدارُ في الماء، أو لأنّها تعودُ بعد ما تذهبُ في البحر، إذِ الذّهابُ في البحر مظِنّةُ عدمِ الرّجوع، وربما نُظرَ إلى شكل السّفينةِ مع التّجاوزِ عن تمام الاستدارةِ، مثلما يُسمّون ما تحت وَتَرةِ الأنف دائرةً، ويُقال للموجِ إذا اضطرب وجاء وذهبَ: فَلَك[4].

3) ﴿طَيِّبَةٍ﴾ الطّاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خلاف الخبيث[5]، وتتّسعُ معانيه، فيقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيّبةٌ إذا كانت حلالًا..[6].. وريحٌ طيّبةٌ: ليّنةُ الهبوبِ رقيقةٌ لا عاصفةٌ ولا ضعيفةٌ، فهي مناسبةٌ لسيرِ السّفن، وموافقةٌ لغرضِهم ورغبتِهم ومنفعتِهم[7].

4) ﴿عَاصِفُ﴾: العين والصّاد والفاء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلّ على خفّةٍ وسرعة[8]، وريحٌ عاصفٌ: الشّديدةُ الهبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتذهبُ بها، أي تعصفُ بها[9]. وريحٌ عاصف: هي الرّيحُ الشّديدةُ القويّةُ التي تعصفُ بالأشياء وتذهبُ بها[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (سير).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(4) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صيب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طيب).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 2/14، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/36، والمراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصف).
(9) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصف).
(10) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113، والحجازي، التفسير الواضح: 2/52.

5) ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾: الميم والواو والجيم أصلٌ واحدٌ يدلّ على اضطرابٍ في الشّيء[1]، ماجَ يموجُ: إذا اضطرب وتحيّرَ، وكلُّ شَيءٍ اضطربَ فقد ماج، والموجُ: ما ارتفع منَ الماء فوق الماء، وهو موجُ البحر، والجمعُ أمواج، وسُمّي بذلك لاضطرابه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صورةٌ للنّفسِ الكافرةِ يُحيط بها ما تكرهُ فتلجأُ إلى الله واعدةً بالشُّكرِ إذا نجتْ

امتنّ الله على النّاس جميعًا بنعمةِ تسْييرهم بقدرته ورحمته في أيّ برٍّ وبحرٍ بما وهبَهم من قدرةٍ على السّير، أو ما سخّر لهم من دوابٍّ وسُفنٍ، وغيرهما، تسخيرَ استقرارٍ وتمكّنٍ، حتى إذا كانوا في السُّفن، وسارت بهم سيرًا آمنًا لا خوفَ فيه ولا اضطرابَ بريحٍ لطيفةٍ ملائمةٍ لقصدِهم تحملُ الرّخاءَ الآمنَ، وإذْ بريحٍ عاصفةٍ شديدةِ السُّرعة والتقلّبِ ومعها الموجُ يحْدِقُ بهم ويُطوّقهم من كلّ جهةٍ، وسُدَّت المنافذُ الممكنةُ كلُّها، وأيقَنوا أنْ لا نجاةَ لهم إلّا بالله فتوجّهوا إليه وحدَه، مؤكّدين دعاءَهم بالقسَم: لئن أنجيتَنا من هذه الأهوالِ التي نحن فيها لنكونَنَّ البتّة بعد ذلك منَ المؤمنين الشّاكرين لك، المطيعين لأمرك، المتّبعين لشرعك.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

مثالٌ آخرُ للامتنانِ على المشركين بالنّعمةِ وتسجيلٍ لسرعةِ كُفْرانِها

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ والتي قبلَها ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لما بين الجملتَيْن من كمال اتّصالٍ أي اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسبب كوْنِ هذه الآية بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ إلى آخرها؛ لأنّ البغيَ في الأرض اشتملَ عليه المكرُ في آيات الله، وقد عدّ ابنُ عاشورٍ موقعَ الآية موقعًا رشيقًا جدَّ الرّشاقة؛ إذ إنّ المقصودَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موج).

فيها هو قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما سواه تمهيدٌ وإدماجٌ[1] للامتنان عليهم بالنّعمة، وتسجيلٍ لكفرانها، ولتوارُدِ الآيات عليهم، ولكيلا يغترّوا بالإمهال، فيحسَبوه رضًى بكفرِهم، أو عجزًا عن أخذهم[2].

فائدةُ الالتفاتِ بالضّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيْبةِ: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾:

من يقابلُ الإحسانَ بالكُفرانِ يليقُّ بمقامِه الغَيبةُ والتّبعيدُ لا الحضورُ والتّقريبُ

التفتَ البيانُ الإلهيُّ منَ الخطابِ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ﴾ إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، والأصلُ (وجرين بكم)، و(وفرحتم بها) و(وجاءكم الموج من كلّ مكان) و(ظننّتم أنّكم..) وذلك لأمور:

الأوّلُ: أنّه لمّا كان قولُه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ خطابًا شاملًا يَنطوي على الامتنان للمسَيَّرين في البَرّ والبحر مؤمنين وكفّارًا، حَسُنَ خطابُهم بذلك، ليستديمَ الصّالحُ الشُّكرَ، ولعلّ الطّالحَ يتذكّرُ هذه النّعمةَ فيتهيّأُ قلبُه لتذكُّرِ مُسْديها وشُكرِه، ولكنْ لمّا كان في آخر الآيةِ ما يقتَضي أنّهم إذا نجَوا بغَوا في الأرض عدلَ عن خطابهم بذلك إلى الغَيبةِ؛ لئلّا يُخاطبَ المؤمنين بما لا يليقُ صدورُه منهم، وهو البغيُ بغير الحقّ، ولَوْ تتابع الكلامُ وَفْقَ أُسْلوب الخِطاب دون ما حصلَ في النّصّ منَ الالتفات لكان التّأنيبُ موَجّهًا لكلّ النّاسِ مع أنّ فيهم صالحين لا تظهرُ منهم هذه الظّاهرةُ القبيحةُ منَ الظّواهر المُنافيةِ للسّلوك الدّينيّ المطلوبِ منَ العباد.

الثّاني: قصدُ المبالغةِ في المقْتِ والتّبعيدِ لهم بالانتقال من مقام الحضورِ الذي هو مقامُ التّقريب والتّشريفِ وعُلوِّ الدّرجة إلى مقام الغيبةِ الذي هو مقامُ المقْتِ والتّبعيدِ والطّرد اللّائقِ بمن كانت

(1) الإدماج: أن يُضمَّنَ كلامٌ سِيق لمعنًى معنًى آخر.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

صفتُه أن يقابلَ إحسانَ الله تعالى بالكُفران[1]، وكأنّه يذكرُ لغيرهم حالَهم، ليُعَجِّبَهُم منها، كالمُخبِر لهم، ويَستدعي منهمُ الإنكارَ عليهم والتّقبيحَ لما اقترَفوه، وفي ذلك مبالغةٌ ومقتٌ وتأنيبٌ وتبعيد[2].

الثّالثُ: لفتُ الانتباه إلى الاتّساقِ المشهودِ في السّياق؛ فالتّطابقُ بين الحضور والغَيبةِ، وبين التّحوّلِ من طرفٍ إلى طرفٍ، بمثابةِ صورةٍ مصغَّرةٍ لمضمون الآياتِ التي أكّدت على معنى التّضادِّ بين: ﴿ٱلْبَرِّ﴾ [يونس: 22] و﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: 22] ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22] و﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: 22] و﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 23] ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: 22] و﴿أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس: 23] ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 23] و﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: 23].

كما أنّ الانتقالَ منَ الحُضور إلى الغيبةِ بتلك السّرعةِ الفُجائيّةِ يُنشئ عند المتلقّي نوعًا منَ التّوتّر، ويَستدْعيه للوقوف والتّأمّلِ لصورة الانتقالِ المعنويِّ المفاجئ للبحر الهادئ يهيجُ على غير توقُّعٍ... أهو التفاتٌ للبحر! وللإنسانِ يوحّدُ الله ثمّ يشركُ.. أهو التفاتٌ للمكلّف!! وللإنسان يعاهدُ بكلّ صدْقٍ وقوّة ثم ينقضُ عهودَه عند أوّل شعورٍ له بالأمان.. أهو التفاتٌ للقلْبِ!!!، ويشحذُ عنده الإحساسَ بحدّة التّحوّل، لِيحسَّ ويَعي، ويستعظمَ ما في سلوك النّاس منَ الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، ومن مقامٍ إلى مقامٍ!.

فائدةُ تعريف طرفَيِ الإسنادِ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

أفادَ تعريفُ طرفَيِّ الإسناد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ قصْرَ القُدرةِ في تسخير البَرّ والبحر على الله وحدَه، أي هو لا غيرُه، وذلك بقصد الامتنانِ والتّعريضِ بإخلال الكافرين بواجبِ الشُّكرِ[3].

وحـدهُ سبحانه المستحِقُّ للشُّكرِ فـلا خـالـقَ ولا مُنعمَ إلّا هو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135.

فالمقصورُ به: تعريفُ طرفَي الإسناد في الجملةِ الاسميّة؛ فالمسندُ إليه الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾، والمسندُ: الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، فالمقصورُ: الخبرُ، أي الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يَحملان صفةً تدلّ على معنًى قائمٍ فيها، وهو القدرةُ على التّسيير في البَرّ والبحر، والمقصورُ عليه ﴿هُوَ﴾؛ أي الله تعالى، وهو الموصوفُ، والمقصور عنه: كلُّ شيءٍ ما عدا الله ﷻ، ونوعُ هذا القصْرِ باعتبار المقصور والمقصورِ عليه: قصْرُ صفةٍ على موصوف؛ فقد قُصرت صفةُ القُدرة على التّسيير في البَرّ والبحر أي تَسخيرُه على الله وحدَه سبحانه.

غرَضُ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ وصلَتِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

عُرّف المسندُ إليه بالاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ دونَ الاسم الظّاهرِ (الله)، فلم يقل: (هو الله يسيركم)؛ لغرضِ التّعظيم بأنْ ذكّرَ بصلتِه المعظَّمةِ، وهي قدرتُه في تسخير البَرِّ والبحر؛ إذ هذا الفعلُ لا يكونُ ولا يصلحُ إلّا منه سبحانه، ولذلك لم يصرّح باسمِه، وإنّما اكتفى بالاسمِ الموصولِ.

تسخيرُ الكونِ وصلاحُه لا يكونُ إلّا منَ العظيمِ سبحانَه

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ ابنِ عامر، وأبي جعفر[1]؛ وهي (يَنْشُرُكُم) مِنَ النَّشرِ ضدّ الطّيِّ، والمعنى: يُفَرِّقكم ويَبُثُّكم[2]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

تَنوّعُ فضلِهِ سبحانَه في تسخيرِ البَرّ والبحرِ يَستوجِبُ الشّكرَ لا المسارعةَ في الكفرِ

الثّانية: قرأ بها الباقون[3]، وهي: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسييرِ، والتّضعيفُ فيه للتّعديةِ، وقال الفارسيّ: هو تضعيفُ مبالغةٍ لا

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.
(2) ابن مجاهد، السبعة: ص 325، وابن الجزري، النشر: 2/282.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.

تضعيفُ تعْديةٍ[1]، والمعنى: يَحملُكم على السّير، ويمكّنُكم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: 69][2].

والقراءتان كآيتين جاءتا في سياق الامتنان؛ لتَدلّا على سَعةِ فضل اللّه سبحانه ورحمته بالإنسان، فقد نشرَهم وبثَّهم في البَرّ والبحر، وحملَهم فيهما، وهذا من أنواع التّسخير الذي قدّرَه سبحانه.

بَلاغةُ المجازِ العقليِّ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

نِسبةُ التّسيير إلى الله مبالغةٌ في إظهارِ فضلِه وتقريرٌ أنّ كلَّ أمرٍ مرجِعُه إليه

أسند اللّه التّسييرَ في الآية إلى ذاتِه سبحانه فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، بخلافِ آياتٍ أخرى نُسبَ السّيرُ فيها إلى النّفس الإنسانيّةِ، منها قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 69]؛ باعتبار أنّه ﷺ سببُ هذا التّسيير، فهو خالقُ الأسبابِ والمسبّباتِ، فالإسنادُ مجازٌ عقليٌّ[3]، يشيرُ إلى أنّ تحقّقَ أيِّ فعلٍ إنّما يعودُ إلى مشيئة اللّه سبحانه، وهذا فيه إظهارٌ لفضلِه ونعمتِه التي لا تقتصرُ على خلْقِ فعلِ التّسيير، وإنّما تشملُ كلَّ حركةٍ يتحرّكُها الإنسانُ، وأنّها تنتهي في الوجودِ إلى اللّه تعالى، فاللّه خالقُ الأرضِ والبحرِ وجسمِ الإنسان، وإلهامِ التّفكير، وقوَى الحركةِ العقليّةِ والجسديّةِ التي يَسيرون بها في البَرّ والبحر، وبسطَ لهم الأرضَ، وسخّر لهم ما يركبون في البَرّ والبحر، إذن: فكلُّ أمرٍ مرجعُه إلى اللّه سبحانه[4].

معنى: ﴿فِى﴾:

استعمالُ (في) مبالغةٌ في الدّلالة على الاستعلاءِ والاستقرارِ والتّمكّنِ منَ المُسَخَّرِ

أتى حرفُ الجرّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بمعنى الاستعلاء؛ لأنّ الظّاهرَ هو العُلوُّ على الأرض والفُلكِ، أي يُسيّركم على البَرّ والبحر، وإنّما أعرضَ عن ذكر حرفِ

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/168.
(2) محمد محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/227.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3544.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5844.

الاستعلاءِ وهو (على)، وعدلَ عنه إلى حرف الوعاء وهو (في)؛ إعلامًا بأنّ حرف الوعاءِ أقعدُ وأمكنُ ههنا من حرف الاستعلاء؛ لأنّ (على) قد تُشعر بالاستعلاء من غير تمكّنٍ واستقرارٍ، و(في) تُشعر ههنا بالاستقرارِ والتّمكّنِ، ومن حقّ ما يكون مُستقِرًا فيه متمكِّنًا أنْ يكونَ مُستعليًا له، فلمّا كانت تُؤْذنُ بالمعنيَيْن جميعًا آثرَها وعدلَ إليها، وأعرضَ عن (على) دَلالةً على المبالغة التي ذكرناها[1].

معنى(أل) في: ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾:

من تمامِ النِّعمةِ أن يكونَ تسخيرُ البَرّ والبحرِ عامًّا شاملًا

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: أنَّ تسخيرَه البَرَّ والبحرَ للإنسان عامٌّ شاملٌ، فلا يقتصرُ على بحرٍ دونَ بحرٍ، ولا مكانٍ في البرّ دون آخرَ، ولا على زمانٍ دونَ زمانٍ، أي: في كلّ وقتٍ وفي كلّ زمانٍ تسيرون فيه سيرًا عظيمًا لا تَقدرون الانفكاكَ عنه[2].

نُكتةُ تقديم البَرّ على البحر: ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾:

تقديمُ النِّعمةِ الأهــمِّ والأعــمِّ والأكثرِ في سياق الامتنانِ أَوْلى

السّيرُ في البرّ والبحر كلاهما مختلفٌ، وقد قدَّم القرآنُ البَرّ على البحر في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لأنّه الأنسبُ للسّياق الذي هو الامتنانُ؛ فنعمةُ التّسيير في البَرّ أكثرُ وأكبرُ وأعمُّ؛ فهي لكلّ النّاسِ بخلاف التّسيير في البحر الذي هو للبعضِ فقط، كما أنّ الإنسانَ حين يسيرُ في الأرض على اليابسة قد تنقطعُ به السُّبلُ، ولكنّ الخطورةَ أخفُّ فيُمكنُه أنْ يَستصرخ أحدًا منَ المارّة، أو يستريحَ وينتظرَ إلى أن يمرَّ عليه من يعاونُه، أمّا السّير في البحر فخطورتُه أكبرُ وأكثرُ؛ فلا توجدُ به سابلةٌ أو سالكةٌ كثيرةٌ؛ حتى يستصرخَهمُ الإنسانُ[3].

(1) المؤيد بالله، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/32.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/98.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5847.

نُكتةُ تخصيصِ ذكْرِ مثالِ البحر دون البَرّ:

لما كانتِ الخُطورةُ في البحر أشدَّ كانت نِعمةُ الإنجاءِ فيه أكبرَ

خصَّ القرآنُ البحرَ بالذّكرِ في سياقِ الحديثِ عن نعمة الإنجاءِ بعد الخوف دونَ البَرّ، لأنّ خطورته أشدُّ والعطبَ بأحواله أظهرُ، وبالتّالي السّيرُ فيه من أكبر الآياتِ، ونعمةُ الإنجاء فيه من أوضح البيّناتِ[1]، فالحديثُ عن إزالة الخطرِ للمُضطرّ في البحر يتضمّنُ الحديثَ عن إزالتِه عمّن يسيرُ في البَرّ من بابٍ أَولى، فإذا ما جاء الدّليلُ الأقوَى فلا بدَّ أن ينضويَ فيه الدّليلُ الأقلُّ[2].

فائدةُ التّعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالةُ ما يأتي بعدها:

مَجيءُ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسْيير الهنيءِ المُنعَمِ به

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ تحتملُ وجهَين:

الأوّل: حرفُ غايةٍ للتّسيير، ولا يُؤثّرُ جعلُ قولِه سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ غايةً للتّسيير في البحر مع أنّه مقدّمٌ عليه، وغايةُ الشّيء لا بدّ أن تكونَ مُتأخّرةً عنه؛ لأنّه لا إشكالَ في جعْلِ ما ذُكرَ غايةً لما قبلَه، ووجهُ الغايةِ أنّ المعنى: يُسيرّكم في البَرّ والبحر إلى وقت حصولِ شدّةِ البحر، والظّنِّ والدّعاءِ، والرّجوعِ إلى الكفر، أَو يُمكّنُكم منَ السّير حتى يحصلَ ذلك المذكورُ في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

الثّاني: ابتدائيّةٌ تفريعيّةٌ لا للغاية، ولو تضمّنَ التّفريعُ معنى الغاية كأنّه قيل: فإذا كنتم في البحر واشتدّ أَمرُه عليكم، وظننتُم أنّكم هَلكَى دعوتمُ اللّه، فإذا أَفرجَ عنكمُ اللّه رجعتُم إلى الشّرك.

ومعنى الغاية أنّ مجيءَ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسيير الهنيءِ المنْعَم به؛ إذ حينئذٍ ينقلبُ التّسييرُ كارثةً ومصيبةً.

استعمالُ (إذا) دَلالةٌ على قطْعيّةِ ما يُخبرُ اللّه به من حالِهمُ الباغيةِ الغادرةِ

معنى ﴿إِذَا﴾، ونُكتةُ اختيارها:

عبّرَ القرآن الكريمُ بحرف الشّرطِ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ دونَ (إنْ)؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إذا) أنْ تدخلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5848.

على الذي تُيقِّن وقوعُه أو رُجّح، والأصلُ في استعمالِ (إنْ) أن تدخلَ على المشكوكِ فيه، وبناءً على ذلك فإنّ استعمالَ (إذا) ناسبَ قطعيّةَ ما يُخبرُ اللّه به عن مرحلةٍ من مراحلِ إخبارِ اللّه ﷻ عنِ المعاندين لدعوةِ الإسلامِ، وعن حالِهم الباغيةِ الغادرةِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ:

عبَّرَ القرآنُ في ضرب هذا المثلِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، وضمّنَها ثلاثةَ قيودٍ في شرطِها، وثلاثةَ قيودٍ في جزائِها، أمّا القيودُ المعتبرةُ في الشّرط فأوّلها: الكونُ في الفُلْك، وثانيها: جريُ الفلك بالرّيح الطيبّةِ، وثالثُها: فرحُهم بها، وأمّا القيودُ المعتبرةُ في الجزاء، فأولها: قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وثانيها: قولُه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، وثالثُها: قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ والمرادُ: أنّهم ظنّوا القُربَ منَ الهلاك، وأصلُه أنّ العدوَّ إذا أحاط بقومٍ أو بلدٍ فقد دنَوا منَ الهلاك[1]، وفي هذا استحضارٌ لصورة الماضي المكرّرِ منزلةَ الحاضرِ المشاهَدِ.

استِحْضارُ الماضي المكرَّرِ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ يشيرُ إلى حِلْمِ الله

معنى (أل) في: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

الفُلك: اسمٌ لمَركَب البحر، وهو اسمُ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ، يُطلقُ على الواحدِ فما فوق، أي استوى في اللّفظ المفردُ والجمعُ، والمراد هُنا الجمعُ بدليل: ﴿وَجَرَيْنَ﴾.

الجمعُ المعرَّفُ بألْ يُفيدُ العُمومَ

و(أل) التّعريفِ في كلمة الفُلك جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، ومعلومٌ أنَّ الجمعَ المعرّفَ بأل الجنسيّةِ الاستغراقيّةِ يُفيدُ العمومَ، لتشملَ نعمةُ التّسيير في البحر حملَهم في أيّ فُلكٍ واستقرارَهم عليه.

معنى الواو في: ﴿وَجَرَيْنَ﴾:

تعدّدُ صوَرِ النّعيمِ وتَنوّعُه من أعلى صوَرِ الامتنانِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ تحتملُ وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.

﴿كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾، والمعنى على هذا الوجهِ: حتى إذا كنتُم في الفُلك، وجرت بالنّاسِ بريح طيّبٍ، وفي هذا العطفِ زيادةُ بيانِ النّعمِ؛ فمع نعمةِ الحملِ في الفُلك والاستقرارِ عليها تأتي نعمةُ السّير السّريعِ للفُلك التي تتحرّكُ رخاءً.

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى: حتى إذا كنتُم في الفُلك حالَ جَريانِها بالنّاس بريحٍ طيّبةٍ[1].

معنى الباء في: ﴿بِهِم﴾:

الباءُ تشيرُ إلى نعمةِ السّيرِ الآمنِ للرّاكبين في الفُلك؛ فهم مُصاحِبون لها

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ تحتمل معنيَيْن:

الأوّل: التّعْديةُ؛ إذ تتعلّقُ الباءُ بـ ﴿وَجَرَيْنَ﴾ تعلُّقَها بالمفعول نحوَ: مررتُ بزيد، أي (وأَجريناهم)؛ لأَنّ إطلاق الجرْيِ عليهم مجازٌ، لأنّها الجاريةُ.

الآخرُ: الباءُ للمصاحبة، أي جرت وهم فيها، أي مصاحبين لها.

وسواء كانت للتّعدية، أوِ المصاحبة فإنّ الإلصاقَ لا ينفكُّ عنها في المعنَيَيْن، والمعاني كلُّها تشيرُ إلى تحقُّقِ نعمةِ السّيرِ السّريع الآمنِ باتّجاه مقصدِهم.

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿بِهِم﴾ بضمير الغيبةِ بين الالتفاتِ والحقيقةِ:

فنٌّ منَ الإبداعِ في الإيجازِ بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ

الخطاب للذين يمكرونَ في آيات اللّه، الذين قد لا يكونون ممنّ ركِبوا البَحْرَ، وتعرَّضوا لمثل ما وصفَ النّصّ بعد ذلك، لكنّهُم لو تعرّضوا لمثلِه لكان حالُهُم مثلَ حالِ مَن وصفَهمُ اللّه، فاقتضى ذلك تشبيهَ حالِهم بحالِ أمثالِهم السّابقين لهم حكايةَ قِصّةٍ من قِصَص الكافِرين السّابقين، ولهذا توقّفَ النّصُّ عند الفِقْرةِ الأولى المتعلّقةِ بشأن المخاطَبين إبّانَ التّنزيل وبَعْدَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾، وانتقَل مباشَرةً إلى تصوير مَشْهَد قومٍ كافِرينَ جرَتْ بهِمُ الفُلْكُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

بريحٍ طيّبةٍ، باستخدام ضمير الغَيبةِ ﴿بِهِم﴾ وأسلوبِ الالتفات؛ فقال اللهُ ﷻ بأسلوب حكايةِ خَبَرٍ عن حدَثٍ مضى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

واكتَفَى النّصُّ بالمقدّمة الّتي وُجّهتْ للمخاطَبين، عن ذكْرِ نظيرها ممّا يخصُّ المتحدَّثَ عنهم بالغيبة، فكأنّه قال لهم: فسيكون حالُكُم كحال كافرين قبلَكم ركبوا في الفُلْكِ.

وحصل الاكتفاءُ بإشارةِ قول الله للمخاطَبين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ عن أنْ يقول لهم: (إنّكُم لو تعرَّضْتُم لمثل ما تعرّض له أصحابُ هذه القصّة لكنتُم مثلَهُم، للتّشابُه بينكُم وَبينَهم في أصلِ الفِطرَةِ، وفي الدّوافع إلى الكفرِ والبغْيِ).

وهذا فنّ منَ الإبداع في الإيجاز بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ مع الإشارة التّعريضيّةِ الضِّمنيّةِ إلى أنّ المخاطَبين مثلُ أصحابِ هذه المشاهدِ.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

ريـحٌ فَـخـمـةٌ لطيفةٌ مُلائمةٌ لـقـصْـدِهـم تحملُ الرَّخاءَ الآمنَ والسُّرورَ الشّاملَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ بصيغة التّنكير؛ لما في التّنكير من معانٍ توضّحُ النّعمَ التي امتنّ اللهُ بها على الإنسان بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في (ريحٍ) يفيدُ التّفخيمَ والتّكثير، أي اجتمعَ لهم مع تسخير البحرِ، والحملِ في الفُلك ريحٌ فخمةٌ، ومع قوّتِها لطيفةٌ تحملُ الأمنَ والسّرورَ بتحقيق ما يطلبونَه منَ الوصولِ إلى مقصدِهم مع الشّعورِ بالمتعةِ بها، وهي كثيرةٌ تستوعبُ كلَّ مراحلِ الارتقاء في صناعةِ السُّفنِ، وتنسجمُ مع كلِّ تسْييرات البحر، خصوصًا وأنّ كلمةَ الرّيح قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوّة أيًّا كانت: من هواءٍ، أو مُحرّكٍ يسيرُ بأيّة طاقةٍ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

غرَضُ وصْفِ الرّيح بأنّها طيّبةٌ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

ريـحٌ شـديـدةٌ ملائـمةٌ لـحالِ الـفُـلـكِ وحـالِ الـرّاكـبـين وطِـيـبِ أمنِهم وسرورِهم

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها طيّبةٌ في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وغرَضُه من ذلك دفعُ وإزالةُ التّوهُّم أنْ تكونَ ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممّا يُفرحُ بها لِطِيبِها؛ لأنّ من عادة القرآن أنّه حيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العذابِ أتتْ مُفردةً، إلّا أنَّ هذا لم يطَّرد هنا، ولهذا وصفَ سبحانه الرّيحَ التي أرسلَها عليهم بأنَّها طيّبةٌ[1].

كما أنّ فيها دَلالةً على تمام النّعمةِ؛ إذِ الطَّيّبُ هو الموصوفُ بالطِّيب الشّديدِ، وأَصلُ مَعنَى الطَّيِّب المُلاءَمةُ فيما يُرادُ منَ الشَّيءِ، كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: 97]، ويقال: طاب له المقامُ في مكانِ كذا[2]، أي إنّها ريحٌ شديدةٌ فيها طيبُ الرائحة، وطيبُ الملاءَمة لحال الفُلك، وحالِ الرّاكبين، ومقاصدِهم، وطيّبُ الأمنِ الذي تُحقّقُه بأمر الله سبحانه.

فائدةُ إفرادِ لفظةِ الرّيحِ في موضع الإنعامِ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

جـمـالُ المقابلةِ مع الملاءَمة كان تمامَ المعنَى

أفردَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ الرّيح في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لوجهَيْن:

الأوّل: لفظيٌّ وهو المقابلةُ؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ جاء في مقابلة قولِه سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾.

الثّاني: معنويٌّ، وهو أنّ تمامَ الرّحمةِ تقتضي هنا وَحدةَ الرّيح؛ فإنّ السفينةَ لا تسير إلّا بريحٍ واحدةٍ، ولو اختلفت عليها الرّياحُ، وتصادمَت وتقابَلَت هلكتْ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، ولذا أُكّدتِ الرّيحُ بوصْفِ الطَّيّبةِ[3].

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/118، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/356.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/357.

معنى الواو في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ تحتمل وجهَيْن:

الـــواو بـين العطْفِ والحالِ

أحدُهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُ الله سبحانه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، والمعنى على هذا الوجه: (وجرت الفُلْك بالنّاس وفَرِحوا بالرّيح الطّيّبةِ التي يسيرون بها).

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى على هذا الوجه: (وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ قد فرحوا بها)[1].

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ للسّببيّةِ، والمعنى: وفرحوا بسببِ تلك الرِّيح وبالفُلك الجاريةِ بها.

دَلالةُ حرفِ الباء على السّببيّةِ بيانٌ لأثَرِ النِّعمِ وترتُّبِها على بعضِها

نُكتةُ ترْكِ العطْفِ في: ﴿جَآءَتْهَا﴾:

لم يَعطفِ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ على الجملةِ التي قبلَها ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾؛ لأنّها جاءت جوابَ (إذا) الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾، وأمّا قولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ فهو بدلٌ من ظنّوا؛ لأنّ دعاءَهم من لوازم ظنِّهم الهلاكَ[2]، ومَجيءُ هذه الجملة جوابًا لفعْلِ الشّرطِ في سياقِ الالتفات، والانتقالِ من مقام حضورٍ في بدايتها ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ إلى مقام الغيبةِ في جوابها ﴿جَآءَتْهَا﴾ بتلك السّرعةِ الفُجائيّةِ، مع ما تحملُه صيغةُ هذا الجواب ﴿جَآءَتْهَا﴾ وما عُطفَ عليه ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ و﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ كلُّ ذلك يُصوِّرُ مشهدَ حربٍ، كلُّه رعْبٌ في الرّيح المدمِّرةِ، والموجِ الذي أحاط بهم من كلّ اتّجاهٍ فلا مفرَّ منَ الموت.

في الاستئنافِ البيانيِّ تصويرُ مشهدِ الرُّعبِ في الرّيحِ القويّةِ المدمّرةِ والموْجِ القاتلِ

عودُ الضّمائرِ في ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

ذكرَ المفسّرون في عوْدِ الضّمير في قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ قولَيْن:

الضّمائرُ وعودتُها إلى الفُلْك أو الرّيحِ الطّيّبةِ يَرسمُ مشهدَ حربٍ تحملُ الهلاكَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.

الأوّلُ: الضّميرُ عائدٌ إلى الفُلْك، ولا إشكالَ في كوْنِ الضّمير هنا هو ضميرَ الواحد، والضّميرِ في ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ العائدِ إلى الفُلْك هو ضميرَ الجمعِ؛ لأنّ لفظَ الفُلْك يصلحُ للواحد والجمعِ، فحَسُنَ الضّميران، وقد رجّحَه أبو حيّانَ، قال: "والظّاهرُ عوْدُ الضّمير في ﴿جَآءَتْهَا﴾ على الفُلْك؛ لأنّه هو المحَدَّثُ عنه في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾"[1].

الثّاني: الضّميرُ عائدٌ إلى الرّيح الطَّيّبةِ المذكورةِ في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وقد قاله الفرّاءُ وبدأ به الزّمخشريُّ[2]، والمعنى: عارضتْها ريحٌ مضادّةٌ لها فذهبتْ هي، فإنّ العاصفةَ ضدُّ اللّيّنةِ، وهذا أَولى من عوْدِه إلى الفُلْك؛ لقُربِ الرّيحِ، ولتقدُّمِ الإضْمارِ له في قوله ﴿بِهَا﴾، ولأنّه لم يقلْ (جاءَتهن) كما قال ﴿وَجَرَيْنَ﴾.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿رِيحٌ﴾:

ريـــحٌ قـويـةٌ شـديـدةٌ تحملُ الرُّعبَ والهلاكَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ لِما في التّنكير من معانٍ توضّحُ العذابَ الذي نزلَ بهم بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في ﴿رِيحٌ﴾ يفيدُ التّفخيمَ والتّكثيرَ، أي جاءت سُفنَهم، أوِ الرّيحَ الطّيّبةَ ريحٌ قويّةٌ كثيرةٌ عاصفةٌ حرّكتِ الأمواجَ، وأهاجتْها من كلّ مكانٍ، وزرعت في قلوبِهم الرّعبَ، ويقينَ الهلاكِ.

غرَضُ وصْفِ الرّيحِ بأنّها عاصفٌ في: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

العـاصـفُ ريـحُ عـذابٍ شديدةُ الخِفّةِ والسّرعةِ تَستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها عاصفٌ، ولم يَستخدم وصْفًا آخرَ كشديدةٍ أو قويّةٍ أو سريعةٍ؛ إشارةً إلى اتّساعِ دَلالةِ كلمة: ﴿عَاصِفٌ﴾ فهي تدلُّ على الشّدّةِ والخفّةِ والسّرعةِ، "عصفت الرّيحُ اشتدّت، وأصلُ العصْفِ السّرعةُ، كما أنّه استعمل اسْمَ الفاعل ﴿عَاصِفٌ﴾ مراعاةً للفْظِ الرّيح المذكّرِ، ولأنّه يُرادُ ذاتُ عصوفٍ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

وذلك نظيرُ قولِ العرب للرّجل يكون عنده تمرٌ كثيرٌ: رجلٌ تامرٌ[1]؛ أي عنده تمرٌ كثيرٌ، والمعنى ريحٌ مدمّرةٌ مُغرقةٌ لا خيرَ فيها بل عذابٌ شديدةُ الهبوب ذاتُ خِفّةٍ وسرعةٍ، تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

معنى الواو في: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قول الله سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، والمعنى العامُّ الذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه هو أنّ كلَيهما منَ القيودِ المعتبرةِ في الجزاء، فهُما من أفراد العذابِ الذي قدّره الله عليهم، وإنْ كان عذابُ كلٍّ منهما يختلفُ عنِ الآخر، فلكلٍّ منهما دورُه في زرع الخوفِ في القلوب.

العطفُ زيادةُ بيانٍ للعذابِ الذي نَزلَ بهم

بَلاغةُ المجازِ في إسنادِ المجيءِ إلى الموج: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾:

إسنادُ المجيءِ إلى الموجِ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ مجازٌ؛ هو مجازٌ لغويٌّ؛ إذِ المجيءُ يحتاجُ إلى إرادةٍ، ومن وراء الإرادةِ قصْدٌ، والموجُ منَ الجمادات ليس له إرادةٌ، وغرَضُ ذلك تشخيصٌ للموج وتعقيلُه، وكأنّه عاقلٌ مُدركٌ، بما يفيدُ المبالغةَ في قوّة المجيءِ وسُرعتِه وشدّةِ إحاطتِه كالعدوِّ يحيطُ بالقبيلة، ويُطوّقُهم فلا مفرَّ ولا نجاةَ.

تصويرٌ يُظهرُ قوّةَ مجيءِ الموجِ وشدّتَه وسُرعتَه في الإحاطةِ بهم

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾:

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، والمعنى: وجاءهم الموجُ المعروفُ لكلِّ أحدٍ بالرّؤية أوِ الوصْفِ[2]، وهو الموجُ الذي يحملُ الإضرارَ والهلاكَ، لا جنسُ الموجِ الذي يشملُ الهادئَ والعنيفَ.

العَهديّةُ في لامِ التّعريف استحضارُ صورةِ موجٍ مُخيفٍ عرفوه رُؤيةً أو وصْفًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.

معنى ﴿مِن﴾:

كـلُّ المنـافـذِ الممكنةِ قد سُدّتْ ولم يبقَ للنّجاةِ إلّا التّوحيدُ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ابتدائيّةٌ، والابتداءُ الذي تفيدُه ابتداءُ الأمكنةِ المتّجهةِ إلى الفُلك[1]، أي: ابتداءٌ من كلِّ مكانٍ يمكنُ أنْ يجيءَ الموجُ منه، فالاستغراقُ هنا عُرفيٌّ وليس حقيقيًّا[2].

واستعمالُ ﴿مِن﴾ مع لفظ ﴿كُلِّ﴾ يُنبئُ بإحكامِ الحصارِ حولَهم؛ إذ ليس مقصدُ الآية تحديدَ سببِ الهلاك، وإلّا لكانت موجةٌ واحدةٌ من مكانٍ واحدٍ كفيلةً بإغراقِهم جميعًا، ولكنّ المقصودَ بيانُ أنَّ المنافذَ الممكنةَ كلَّها قد سُدّت، ولم يَتركِ الموجُ للخيال فُسحةً أنْ يَتصوّرَ جهةً ما، تأتي منها إغاثةٌ، ولو على سبيل الفرْضِ والوهمِ، ولم يبقَ إلّا التّوحيدُ.

معنى الواو في: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

العطفُ زيادةُ بيانٍ واستكمالٌ لمشهدِ نُزولِ العذابِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾، وبهذا العطْفِ تكتملُ صورةُ نزولِ العذابِ بهم منَ الرّيح المدمّرةِ، والموجِ الذي جاءَهم من كلّ جهةٍ لتكتملَ بيقينٍ صورةُ الهلاكِ.

معنى الظّنِّ وبيانُ مفعولَيْه:

الإحاطةُ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ وظنُّهم بها ظنٌّ مؤكّدٌ

ذكرَ المفسّرون في بيان معنَى الظّنّ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أقوالًا:

الأوّلُ: المرادُ منه المقاربةُ منَ الهلاك والدّنوُّ منه والإشرافُ عليه[3].

الثّاني: بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أنّه الهلاكُ[4].

الثّالث: وظَنّوا على بابه في الظّنّ، لكنّه ظنٌّ غالبٌ مُفزعٌ بحسب أنّه في محذورٍ[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/428.

(3) الخازن، لباب التأويل: 2/436.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/425، والبقاعي، نظم الدرر: 9/98.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113.

وقد رجّحَ الماتريديّ كوْنَ المرادِ غالبَ الظّنّ لا اليقينَ، ولكنّه يُعاملُ معاملةَ اليقين ويأخذُ حُكمَه، ألا ترَى أنّ اللّه أباح الميتةَ في حال الضّرورةِ لغالب الظّنّ؛ إذ قد يجوزُ ألّا يَهلكَ بذلك[1].

والتّعبيرُ بالظّنّ رغْمَ أنّ المرادَ به اليقينُ؛ للإشارة إلى أنّه ما زال عندهم أملٌ بالنّجاة دفعَهم للدّعاء، وكذلك حرْصُهم على الدّنيا وتمسّكُهم بها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 96].

والمصدرُ المُؤوّلُ من أنّ وما بعدها ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ سدّت مَسدَّ مفعولَيْ (ظنّ)[2]، وقد عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن التّعبير بالمصدرِ المُؤوّلِ (الإحاطة) إلى الجملةِ الاسميّةِ ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ التي تفيدُ الثّباتَ والاستمرارَ؛ للدّلالةِ على أنّ الإحاطةَ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ لا مهربَ منها، بما يفيدُ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكّدًا جدًّا.

دَلالةُ التّعبيرِ بالإحاطةِ:

مَشهدُ حصارٍ أحاطَ بهم ليس لهم منهُ نجاةٌ وكأنّه حربٌ

عبّرَ القرآنُ بلفظِ الإحاطةِ من حيثُ مادّتُها وبناؤُها في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دون غيرِها، كالحصارِ مثلا، لاتّساعِ دَلالةِ هذه المادّةِ التي تعني عدمَ وجودِ مَنفذٍ للفرار؛ ولذلك نجدُ الحقَّ سبحانه يتكلّمُ عن الكافرين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: 19]، أي: ليس هناك مَنفذٌ يُفلتون منه[3]، والمعنى: أحاطَ بهمُ البلاءُ من كلّ ناحيةٍ[4]، كما أنّ كلمةَ (الإحاطة) مرتبطةٌ في الوِجدان العربيِّ بأجواءِ الحروبِ والغارات، قال القرطبي مذكّرًا بالأصل الحَماسيِّ للكلمة: "وأصلُ هذا أنّ العدوَّ إذا أحاط بموضعٍ فقد هلكَ أهلُه"[5]، إذن: من شأن التّعبير بالإحاطةِ أنْ توجّهَ المتلقّي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/28.
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/436.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5852.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/50.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/325.

إلى استحضارِ صورةِ معركةٍ، جنودُها الرّيحُ القويّةُ المدمّرةُ والموجُ الذي يُحدقُ بهم ويُطوّقُهم من كلّ مكانٍ بأمرِ الله سبحانه.

أمّا الصّيغة فقد جاءت مبنيّةً للمفعول ﴿أُحِيطَ﴾ لأنّ المخوِّفَ كان الهلاكَ، لا كونَه من معيَّنٍ[1]، فكان التّركيزُ عليه، وصُرِفَ الحدثُ عمدًا عن مُحدِثه، فلم يُسنِدْه إليه، تركيزًا للانتباه على الحدثِ ذاتِه، أي: المفعول وهو الإحاطةُ بهم، وحصْرُ الوعيِ فيه، فلا يتوزّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرَضِ الآيات بالمحيط.

كما أنّ هذه الصّيغةَ تشيرُ إلى العموم؛ إذ لو ذُكرَ الفاعلُ لاقتصرَ عليه، ولكنْ بهذه الصّيغةِ شملَ الفاعلُ الموجَ والرّيحَ والفُلكَ الذي يركبونَه، وما يحملُه من أُناسٍ وأمتعةٍ وغيرِ ذلك، فقد تجسّدَ الهلاكُ فيها كلِّها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالإحاطةِ في: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾:

استعارةُ الإحاطةِ للتّعبيرِ عنِ الهلاكِ وتصويرِه وكأنّه مشْهدٌ تمثيليٌّ

إنّ الإحاطةَ في قوله تعالى: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ استعارةٌ لسدِّ مسالكِ الخلاصِ تشبيهًا له بإحاطةِ العدوّ، فالعربُ يقولون: أحاطَ العدوُّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبَها، لأنّ الإحاطةَ بها تدلُّ على الإحداق بها وتطويقِها، ولمّا كان ذلك هزيمةً وامتلاكًا لها صار ترتيبُ ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ استعارةً تمثيليّةً للهلاك[2]؛ إذ شُبّهتِ الهيئةُ المنتزَعةُ من شدّةِ هبوبِ الرّيحِ العاصفِ وظُهورِ الموجِ من كلّ مكانٍ، وحركةِ السّفنِ حركةً شديدةً بالهيئةِ المُنتزَعةِ منَ العدوِّ وإحاطتِه بشخصٍ من جميع جهاتِه بحيث لا يُرجَى خلاصُه، فاستُعملَ اللَّفْظُ المركّبُ الموضوعُ للهيئةِ المشبَّه بها في الهيئةِ المشبَّهةِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/429.

نُكتةُ الفصْلِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾:

ظنُّهُمُ الهلاكَ دفعَهُم إلى ارتفاعِ قلوبِهم بالدُّعاءِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ عن سابقتِها، ولم يربطْ بينهما بالعاطف؛ لأحد أمرَيْن:

الأوّل: لكوْنِ جملةِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدلًا من ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدلَ اشتمالٍ لِما بينهما منَ الملابسةِ والتّلازُمِ؛ ذلك لأنّ دعاءَهم من لوازمِ ظنِّهم الهلاكَ فهو مُلتبّسٌ به، أي أنّ بين الجملتين كمالَ اتّصالٍ.

أو لكونِها استئنافيّةً مبنيّةً على سؤال يخطرُ بالذّهن وهو: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا اللّه[1]، أي أنّ بين الجملتين شبْهَ كمال اتّصالٍ.

إعرابُ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

يأسهُمُ التّامُّ ويقينُهم بالهلاكِ أيقظَ فطرتَهم بإخلاصِ الدّعاءِ للخالقِ وحدَه

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حالٌ منَ الواو في ﴿دَعَوُاْ﴾[2]، والمعنى: أنّهم لم يدْعوهُ فقط، بل دعَوْه بإخلاصٍ، وأقرّوا بوَحدانيتِه، وألّا شريكَ له أبدًا؛ لأنّهم يعلمون أنّ مثلَ هذا الشّريكِ لن ينفعَهم أبدًا[3]، أي لم يَشوبوا دعاءَهم بشيءٍ منَ الشّوائب، كما جرت عادتُهم في غير هذا الموطنِ أنّهم يُشركون أصنامَهم في الدّعاءِ.

معنى اللّام في: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

خصّوهُ بالأُلوهيّةِ رُجوعًا إلى الفطرةِ لمّا زالَ عنهم عوارضُها

اللّام في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والجارُّ ﴿لَهُ﴾ متعلّقٌ بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، هي لامُ التّبْيين، أي بيّنتِ اللّامُ توجُّهَهم للّه وحده دون أصنامِهم، قال الحسن: مخلصين لا إخلاصَ إيمانٍ لكنْ لأجل العلْمِ بأنّه لا يُنْجيهم من ذلك إلّا اللّه، فيكونُ ذلك جاريًا مجرَى الإيمانِ الاضطراريِّ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/134، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/225.
(2) ابن آجرّوم، مشكل إعراب القرآن الكريم: 1/371.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5853.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُ﴾:

دُعـاؤهـمُ الله وحـــــدَه في شـدَّتِـهـم هي إقـامـةُ الحُجّةِ عليهم ببعضِ أحوالِهم

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لإفادة الحصْرِ والقصْرِ، أي قصَروا وحصَروا دعاءَهم لله، "مُمحِضِينَ له العبادةَ في دعائِهم، أي دَعَوْه ولم يَدْعوا معه أصنامَهم، وليس المرادُ أنّهم أقلَعوا عن الإشراك في جميع أحوالِهم، بل تلك حالتُهم في الدّعاء عندَ الشّدائدِ، وهذا إقامةُ حُجّةٍ عليهم ببعض أحوالِهم"[1]، وتنبيهٌ على غاية قُبحِهم، إذ إنّهم لمّا شارفوا على الهلاكِ دعَوا الله دونَ أصنامِهم، ولمّا أنجاهُم وأنعم عليهم أشرَكوا معه أصنامَهم، واعتدَوْا على حقّ الخالقِ وهو أعظمُ اعتداءٍ.

غرَضُ فصْلِ جملةِ: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ كشَفَ مضْمونَ دُعـاءِ المشركين حالَ اضطِرارِهم

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ عن الجملة التي قبلَها ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يربطْهُما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَين من كمال اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثّانيةَ ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ جاءت بيانًا لجملةِ ﴿دَعَوُاْ﴾؛ إذ إنّ مضمونَها هو الدّعاءُ الذي دعَوا به حالَ اضْطرارِهم[2].

فائدةُ دخولِ اللام في ﴿لَئِنْ﴾:

تأكيدُ وعْدِهم بالقسَمِ إظهارٌ لكمالِ رغبتِهم في الشُّكرِ حرصًا على النّجاةِ

اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هي لامُ توطئةِ القسَمِ، وغرضُ استعمالِها تأكيدُ وعْدِهم بالشّكرِ إذا أنجاهُمُ الله منَ الهلاكِ[3].

فائدةُ المجيء بـ (إن): ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

عبّرَ القرآنُ بحرف الشّرطِ (إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ صدْقِهم رغْمَ التّأكيداتِ المتواليةِ في قولِهم، بدايةً منَ القَسَم ثمّ نونِ التّوكيد ثمّ (من) الصّلةِ؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إن) أنْ تدخلَ على المشكوكِ فيه، أوِ المستحيلِ، أوِ النّادر بخلاف (إذا).

استعمالُ (إنْ) دلالةٌ على عدَمِ صدْقِهم وعلى كشْفِ حقيقتِهم

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حكايةً عنهم بالجملةِ الشّرطيّةِ التي من شأنها أنّها تتعلّقُ بالمستقبل، وبحرف الشّرطِ (إن) الذي يُستعملُ مع المشكوكِ فيه، أوِ النّادرِ، أوِ المستحيلِ، وكان المفترضُ منهم لو صدَقوا في إيمانِهم ودعائِهم ألّا يَشترِطوا، بل أنْ يُسارِعوا إلى الإيمان قبل خروجِ أرواحِهم، عسى أنْ يكفّرَ اللّه خطاياهُم، ولكنْ أبتْ ألسنتُهم إلّا أنْ تفضحَ حقيقةَ ما في قلوبهم.

في الشّرطِ والجزاءِ كشْفٌ لحقيقتِهم التي شأنُها البغيُ والغدْرُ

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

عبّرَ القرآنُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الذي يُستخدمُ للقريبِ؛ للإشارة إلى حالةٍ حاضرةٍ لهم، وهي حالةُ إشرافِهم على الغرَقِ، فالمشارُ إليه هو الحالةُ المشاهَدةُ لهم، وهذا من فائدة الإضْمارِ وعدمِ التّصريح؛ لتشملَ هذه الحالةُ المشاهَدةُ الأمواجَ والرّيحَ والشّدائدَ كلَّها التي يعيشونَها.

الإشارةُ بالقريبِ للتّنبيهِ على حالةٍ مُشاهَدةٍ لهم؛ وهي إشرافُهم على الغرَقِ

كما أنّه يومئُ إلى أنّ ما وصَلوا إليه منَ الخوفِ والضّعفِ واليأسِ الذي اضطرّهم إلى طلب رفعِ هذه الحالةِ منَ العذاب فقط، ووعدَهم بأنْ يكون دَيدنُهم الشُّكرَ الذي لا ينقطعُ.

وإلى نبضِ الفِطرة بشعورِهم، وأنّ اللّه يراهُم، ويرى ما نزلَ بهم من هذه الحالةِ التي يُشيرون إليها.

معنى اللّام في ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسَم المقدَّرِ، ومؤكّدةٌ له مع نون التَّوكيدِ الثّقيلةِ؛ لأنّه جوابٌ لقسمٍ مقدّمٍ على الشَّرط الذي حُذف جوابُه؛ لدلالة جوابِ القسَم عليه حسبَ القاعدةِ: إذا اجتمع قسَمٌ وشرْطٌ فالجوابُ للسّابق.

دَلالةُ توالي المؤكّدات في: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

تَوالي تأكيداتِهم دليلٌ على حالةٍ أيْقَنوا معها أنّه لا مجالَ للنّجاة إلّا بالتّوحيدِ

تميّزَ التّركيبُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بخصوصيّةٍ واضحةٍ؛ إذ اجتمعت فيه عدّةُ مؤكّداتٍ تُبيّنُ تأكيدَ وعْدِ الكافرين بالشُّكر، أي الإيمانِ والثّباتِ عليه إنْ أنجاهم اللّه من مَهلكةِ البحر، والمؤكّداتُ هي: لامُ توطئة القسَمِ ﴿لَئِنْ﴾، واللامُ الواقعةُ في جواب القسَم ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ونونُ التّوكيد الثّقيلةُ ﴿لَنَكُونَنَّ﴾[1]، أي كونًا لا ننفكُّ عنه، وكونُ جواب الشَّرط جملةً اسميّةً يُفيد الثّباتَ والدّوامَ؛ فقد عدلَ عن أنْ يقول (لنشكرن) إلى ما في النّظم الجليلِ؛ للمبالغةِ في الدّلالة على الثّبوت في الشُّكر والمثابَرةِ، أي: لَنكونَنّ البتّةَ بعد ذلك أبدًا شاكرين لنِعمك التي من جملتها هذه النّعمةُ التي سألوها[2]، وكذا التّعبيرُ بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دونَ (لنكونن شاكرين)، أي من هذه الزُّمرةِ التي دَيدنُها الشّكرُ[3].

وهذه المؤكّداتُ المتتابعةُ تشيرُ إلى حالة الاضطرارِ التي وصلوا إليها، وعايَنوا فيها الهلاكَ، وتدلُّ على مبالغتِهم في الوعْدِ بالشُّكرِ، بما سيفْضحُهم، ويكونُ حجّةً عليهم عند كفرِهم.

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حرفُ جرّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

نسبةُ كونِهم من زُمرةِ الشّاكرين هـي أبـلـغُ من وصْفِهم بالشّكرِ

ودخولُها على لفظِ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ليكونَ التّعبيرُ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون (لنكونن شاكرين) يفيدُ كونَهم من هذه الزُّمرة، زمرةِ الشّاكرين التي ديدنُها الشّكرُ[1]؛ لأنّ التّعريف في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فإخبارُ المتكلّمين عن أنفسِهم بأنّهم منَ الشّاكرين يفيدُ أنّهم من أفراد هذه الفئةِ التي تُعرفُ عند النّاس بفئةِ الشّاكرين.

وهذه الصّيغةُ ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من قَبيل الكنايةِ التي هي إثباتُ الشّيء بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التّصريح، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء: 168]: "قولُك: فلانٌ منَ العلماء أبلغُ من قولك: فلانٌ عالمٌ، لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زُمرتِهم، ومعروفةٌ مساهمتُه لهم في العلم"[2]، وقال عند تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء: 136]: "فإن قلتَ: لو قيل: أوعظت أو لم تعِظْ كان أخصرَ، والمعنى واحدٌ، قلتُ: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ؛ لأنّ المرادَ سواء علينا أفعلتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظُ، أم لم تكن أصلًا من أهله ومباشرتِه، فهو أبلغُ في قلّة الاعتداد بوعْظِه من قوله: أم لم تعِظْ"[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

الجنسيّةُ في أل التّعريف دليلٌ على المبالغةِ في وغدِهم بالشّكرِ

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ تفيدُ العمومَ؛ لتشملَ كلَّ ما ينطبقُ عليه اسمُ الشّاكرِ، أي كلُّ أفرادِ هذه الفئة التي تُعرفُ عند النّاسِ بفئة الشّاكرين، والمعنى: لَنكونَنّ منَ الشّاكرين بأفعالِنا، والشّاكرين بأقوالِنا، والشّاكرين بألسنتِنا وقلوبِنا وجوارحِنا، المُديمين على الشّكرِ العَريقين في الاتّصافِ به[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/331.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/263.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/99.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّفينةُ والفُلْكُ والجاريةُ:

السّفينةُ والفلكُ والجاريةُ جميعُهم لمسمًّى واحدٍ، واسمُ السّفينة هو الأصلُ وهو أشهرُهم؛ إذ يُعرّفُ الفُلكُ بالسّفينة، وتُعرّفُ الجاريةُ بالسّفينة، إلّا أنّ بينَهم بعضَ الفروق في المعنى اللّغويِّ، وفي الاستعمال، وهي:

السّفينةُ الأصلُ والأشهرُ، والفُلْكُ إشارةٌ إلى اتّساعِها، والجاريةُ تجري بخفّةٍ وسرعةٍ

السّفينةُ: الجذرُ اللّغويُّ (سفن) تدلُّ على تنّحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيءٍ، كالقِشْر، وسُمّيتِ السّفينةُ بذلك؛ لأنّها تسفنُ الماءَ كأنّها تقشرُه، (تغوصُ فيه وتزيحُه حين جرْيِها)[1].

والفُلكُ: الجذرُ اللّغويُّ (فلك) تدلّ على استدارةٍ في شيء، والفَلَك: موجُ البحر المستديرُ المضطربُ، والفُلكُ: السّفينةُ، وسُمّيت بذلك لاستدارتِها، ولأنّها تُدارُ في البحر[2].

والجاريةُ: الجذرُ اللُّغويُّ (جرى) يدلّ على الانتقال بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متّصلةٍ، والجاريةُ: السّفينةُ، صفةٌ غالبةٌ، وجمعُها (الجواري)، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تجري في البحر بسرعةٍ وخفّةٍ[3].

ويُفرّقُ بينها في استعمالِ القرآن الكريم لها، فوردَ لفظُ السّفينةِ في القرآن الكريم في ثلاثةِ مواضعَ، ويظهرُ أنّه أطلقَ اسْمَ السّفينةِ عندما أرادَ الإشارةِ إلى أصلِها، أوِ الإشارةِ إلى صغرِ حجْمِها، واقتصارِ استعمالِها على الأمور الهيّنةِ كحملِ المسافرين.

ووردَ لفظُ الفُلك في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سفن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جري).

ويظهرُ أنّه أطلق لفظَ الفُلك؛ للدّلالةِ على سَعتِها وكبرِ حجْمِها، وامتلائِها بالرّكاب والبضائعِ، وجرْيِها في عرْض البحرِ مع تلاطُمِ الأمواج، ووردت في مقام تذكيرِ الإنسان بنِعَم الله، وقُدرتِه وكيف سخّرَ له الفُلكَ لتجريَ في البحر.

وورد لفظُ ﴿ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: 11] و﴿ٱلْجَوَارِ﴾ [الشورى: 32] في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، ويظهرُ أنّه أطلقَ لفظَ الجارية؛ للدّلالةِ على سرعة سيْرِها، واختصارِ الطّرقِ للإنسان، وقد وردت في سياقِ الإنعامِ، والتّذكيرِ بقُدرةِ الله وعظَمتِه.

الريحُ العاصِفُ والقاصِفُ والعقيمُ والصّرْصرُ:

الرّيحُ العاصفُ تذهبُ بالأشياءِ، والقاصفُ تَكسرُها، والصّرصرُ شديدةُ البرودةِ، والعقيمُ لا خيرَ فيها بل عذابٌ

تتقاربُ معاني العاصفِ والقاصفِ والصّرصرِ والعقيم، فجميعُها صفاتٌ للرّيح التي تأتي للعذاب، إلّا أنّ هناك بعضَ الفروق بينها، وهي كالآتي:

الرّيحُ العاصفُ: أصلُ الجذرِ اللّغويِّ (عصف) يدلّ على خفّةٍ وسرعةٍ، وريحٌ عاصفٌ: شديدةُ الهُبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

والرّيحُ القاصفُ: أصلُ (قصف) يدلُّ على كسْرٍ لشيءٍ، والقصفُ: السّريعُ الانكسار، وريحٌ قاصفٌ: شديدةٌ تكسرُ كلَّ ما مرّت به من بناءٍ وشجرٍ وغيرِه[1].

والرّيحُ الصّرصرُ: قيل أصلُها منَ (الصِّر): وهو البردُ الشّديدُ الذي يجعلُ الأشياءَ تنقبضُ وتتجمّدُ، أو منَ (الصَّرَّة) وهي الضّجّةُ والصوتُ، وريحٌ صرصرٌ: شديدةُ البرودةِ وشديدةُ الصّوت[2].

(1) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وابن فارس، مجمل اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قصف).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرر).

والرّيحُ العقيمُ: أصلُ (العُقْم): اليُبسُ المانعُ من قَبولِ الأثر، وريحٌ عقيمٌ: غيرُ لاقحٍ، فلا تلقّحُ سحابًا، ولا شجرًا، إنّما هي ريحُ عذابٍ شديدةٌ وإهلاكٌ[1].

وقيل: إنّ الرّيح العاصفَ والقاصفَ في البحر، والصّرصرَ والعقيمَ في البَرّ[2].

(1) الراغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (عقم).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قصف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»